

الانزمات الفكرية حقيقتها وأسبابها

عبد العزيز بن عبد الله

انتظم لقاء بالرباط في شهر نونبر 1981 ، باشراف
اكاديمية المملكة المغربية ، لدراسة
موضوع الانزمات الفكرية والروحية شاركت فيه
شخصيات عالمية وقد اسهم بالنيابة عن اكااديمية
المملكة المغربية اعلام من جملتهم الاستاذ عبد العزيز
بن عبد الله .

تصرفات استعمار جديد متقن لا يزال يحن الى ما
تهيز به وامتاز ضمن قرون مضت ، فالمجاذبات التي
نعيشها اليوم بين الشمال الجنوب ليست سوى
مظاهر تلور انتصام العالم الى معسكرين يوصم
احدهما بالتخلف والعجز الذاتي وعدم الكفاية الفكرية
بحيث تظل المؤثرات والفوارق المادية في العمق المعيار
الوحيد للتقدير والتقييم .

ان فكرة تبعية الشعوب بعضها لبعض فكرة
رائعة لانها تنبثق من اعماق الفكر الانساني الفطري
غير انها استعملت في مسار وحيد الاتجاه يخضع فيه
الاضعف للاقوى ويسخر فيه الاشد فقرا للاكثر ثراء
وغنى بحيث نرى موارد الطاقة والمواد الاولية من
جهة كما نشهد من جهة اخرى فكرة استثمار واستغلال
هذه الطاقات والثروات من طرف ثلة من المنتجين لا
تزال — على ما يظهر — تحت تأثير حقب ولت وعمود

ان العالم يتطور — ضمن علاقات موصولة بين
شعوبه — في مسار متحرك تتفاعل فيه مؤثرات تبس
اشد الثبرات حساسية في المجتمع المعاصر .
ان الانسانية عرضة لتقلبات تنبثق عن مشاكل
جديدة وبالاخص عن نظريات متجددة حول مناهج
الحياة وبعض مجالات الحضارة .

وهكذا يخضع رجل القرن العشرين لمؤثرات
تكيفها وتعملها مجموعة من العوامل ابرزها شعور
بالشخصية او حس بالذات ادى الى تفجير طاقات
تولد عنها ما يسمى بالعالم الثالث .

انها هوية ام تنمخض فقط عن رغبة ملحة نسي
التحرر من نير كتلتين تحركهما باستمرار قوتان
عظيميان بل ان تفتق هذه الهوية استمد مفهومه من
شعور عارم بالغبن والابتزاز تولد هو الآخر عن

أدبرت كانت لها خلالها سيطرة عسكرية يذكيها مركب سمو واستشعار بالسؤدد والكمال الذاتيين ، وهكذا يتجلى القانون الدولي نفسه وكأنه معلول لبواعث صارمة تغذيها وجهات عقديّة أوجدت لنفسها مبررات طوال أجيال في لبوس حضارة معاصرة طريفة . وقد تولد عن هذا المشمر الاحتكاري ما أدى إلى خلل في الكيان البشري أسفر عن أزمات مزمنة تحركت لها كوا من العالم الحديث في اضطرابات متوالية .

وما دامت مظاهر عدم التساوق هذه متحركة فإن أي حل للآزمات التي تواجهها الإنسانية سيظل مجرد دواء مؤقت يهدى الألم ولا يستأصله . إننا لم نحاول في عرضنا هذا إضفاء طابع شرقي باسم الإسلام على عالم مغاير للعالم العربي مع أن أوروبا حاولت بالعكس (تغريب) الشعوب المستضعفة التي جعلها القدر تحت سيطرتها وذلك باسم فكر ديني وتقاليد هيلينية يهودية مسيحية وقد عبر زميلنا (مارسيل بوازار) عن هذه الحقيقة (1) مؤكدا « أن واضع تائسون الشعوب حاولوا باسم المسيحية نرض قواعد لتسيير الحروب أوأخر العصور الوسطى وتعللوا بمثل هذه المراسيم بعد ذلك إلى القرن التاسع عشر » .

إن العالم المعاصر يسمى نحل مشاكله الدولية في نطاق معلمة متحركة جامدة يبقى فيها كل تجديد أو تعديل مشروطا بتغذية مصالح توصف بأنها مكنسبة دون أية رعاية للخلق الدولي .

وهكذا يتعارض المسار الغربي المطبوع بخاتم عقدي مع انطلاقة عارمة لدى شعوب استرقتها الاستعمار - نحو التحرر والتطور ضمن تعادلية حق مجردة من كل عوامل العنصرية والمؤثرات الدينية .

ناذا كنا نحن المسلمين الذين نمثل ربع الإنسانية نطلق حتما من عقديات فاننا متمسكون بقيم معنوية وبحضارة متغلغلة في أعماق التاريخ تطعمها روح إنسانية عالمية لا مجال فيها للنتطعات أو التزمينات من أي صنف أو أي طراز ، أن التخلف والعنف كوسيلة قمعية وما يستتبعان من قصاص ونار كل ذلك يشكل عوامل اضطراب تقابلها قرارات وضعتها هيئة الأمم المتحدة لمواجهة اللجوء إلى القوة والعنوان غير أن تطبيتها يتعثر في « روتين » أو ربما في تقنيات شاذة تعرقل السير الطبيعي لما صدقت عليه الأمم والشعوب من مراسيم وأجراءات .

إن مفهوم الآزمة ومدلولها ما زال لم يتحررا من تعقيدات كانت وليدة روح استعمارية جعلت من العنصر الخلقى والروحي جزءا متضائلا يذوب في خضم بنيوى كلاسيكي يشكل التعليل الوحيد الذي فرض نفسه ولا يزال ، ذلك أن المحتوى الاقتصادي يشكل القوام الجوهرى لا الاتوى فقط ولكن الفريد في هيكل مادي تبرز فيه دواعي الخلل المالى أو الفلاحي أو الصناعى أو الاستهلاكى بما تثيره من هزات وآزمات واضطرابات وانفصامات في التوازن بين الانتاج والاستهلاك وانهايارات في مصانق المعاملات وانكاسات وبطالات وتخفيضات في العملات وفيوضات انتاجية مما لا يترك مجالا للعامل الخلقى الذى يكن فيه أحيانا الحل الأمثل لكثير من المشاكل والآزمات .

فالى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن الآزمات - التي لم يراع فيها سوى جانبها الاقتصادى - سوى آزمات نقص في الانتاج الفلاحي نتج عنه خلل في الاستهلاك الصناعى بسبب انخفاض القوة الشرائية لدى الفلاح وكثيرا ما تنتج المجاعات - التي هى أبرز مظهر في الآزمات - عن خصاص في المحاصيل الزراعية وفي هذا الدور والتسلسل يتدخل ارتفاع الاسعار لخلق اضطرابات زراعية وتوقف للانتاج الصناعى بل إن الفائض الصناعى النسبى تنطلق منه أحيانا الآلية المحتومة التي يتحرك منها دولاب الآزمات وفي كل هذا المسار يظل العنصر المادى هو المحرك الوحيد في نظر معظم رجالات التخطيط في العالم المعاصر وقد أصبح التسلح والتسارع إلى اختراع أشد الأسلحة فتكا عاملا دعم المعاملات المادية وضاعفها فالقنبلة النووية تعكس سياسة جديدة من الصبود تصبح الإنسانية فيها رهانا تتجاذبه كتلتان تتفاعل فيهما عوامل الخراب والدمار .

أين المفاعل الروحي والمعنوى في كل ذلك ؟ إن عامل الكبت الخلقى انهار إلى غير قرار . والعالم الثالث الذى تتضخم في هذه الحال أعداده ينتظر في قلق وحيرة ورعب أحيانا تفجرات ستكون البشرية بكاملها ضحيتها الأولى وكانى بالإنسان تحركه وتذكيه غريزية وحشية ينفعل فيها الحس الخلقى ضمن سلم براكماتيكي متحرك تتجرد فيه القيم من جوهرها الإنسانى .

وهذا الانهيار للمقومات الخلقية في مواجهة تسلسل الآزمات يؤدي حتما إلى خلل في التوازن الإنسانى وفراغ في مجرى التأريخ ومثالياته المتصاعدة

ومع ذلك فقد يكتفى أحيانا عامل معنوي أو خلقي ضئيل لسد فراغ أو تقويم أود أو معالجة مشكل والواقع ان بعض اصناف الانسانية في عالمنا الحديث لم تعد تستعمل لغة واحدة في التخاطب والتفاهم بل ان البعض بدأ يتبادل الاتهامات والمنابزات في سوء نية متبادلة ليس من شأنها ان تساعد على تحقيق التقارب لحل المشاكل ، اننا لا نود ان نوصم بالعمل على اتحام عنصر ديني في بلورة مبادئ أو مسلمات لا يعيننا منها الا مظهرها المعنوي والخلقي الذي هو تراث الانسانية يكاملها غير اننا نتجه قسرا في محاولة تعريف وجهة نظر العالم الثالث المتبلور في المجموعة الانثوية الاسيوية التي يسودها على ما يلوح الطابع الاسلامي .

لقد اوضح صديقنا بوازار (2) « ان الموضوعية التاريخية بل مجرد العدالة تحذو الى التذكير بان الحضارة التي تبنت ثقافة البحر المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى - كانت اسلامية » ولا يوجد ضمن هذه النظرية الاسلامية ميز بين ما هو محتوم قانونيا وبين الواجب الخلقى .

ثم اضاف زميلنا بوازار (3) « ان الاسلام يمتلك عناصر جواب عن التساؤلات الاساسية في العصور الحديثة .. وبذلك اتامت الشعوب الاسلامية اثر تخلصها من الاستعمار مرآة قد تنعكس عليها صورة متخيلة للمجتمع الاسلامي في المستقبل » .

وقد لاحظ (بوازار) في مكان آخر « ان الفلسفة الغربية وكذلك تاريخ أوربا منذ القرن التاسع عشر خاصة قد ساهبا في وسم النظام القانوني الدولي بسمة ايجابية بارزة ترفض كل اعتبار خلقي أو روجي وبالرغم من حربين عالميتين لم يعرف ذلك النظام كيف يتلافها وبالرغم كذلك عن محاولة حديثة اكثر نسقا لتنظيم مجتمع الدول عن طريق هيئة الامم المتحدة وفروعها المتخصصة ، فان القانون الدولي ما زال على ما كان عليه لم يطرا عليه اى تغيير في روحه » . وهكذا يمكن القول بان الانسانية امست موضع تجاذب بين معطيات متناقضة تثبتق اما عن التزامية متحجرة او عن منطلق مخلص نزيه ينتج بسروز الحقيقة ومن حسن الحظ ان طائفة من النخبة الفكرية المعاصرة - وهي متجهة نحو التحرر والانعتاق - لم تستطع مؤشرات المادية ومغريات امتصاصها ولا صرفها عما هي بصدد البحث عنه فهي تجهود النفس منتقية بين ثنايا كتلة غير متساوقة الوجهة

الروحية التي ترى انها المنطقية أو الحركة السياسية الاجتماعية الاوفى والاكثر انطباقا على مبتغاها فلا الموروثات المجردة تعنى بصرها ولا العقلانيات أو النفسانيات أو التقليديات الواهية تستخفها ففكرها الخلاق المبدع فكر جر قد اكتمل توازنه بمتمهدات رصينة تنجرت عن معطيات العلم الحديث الذي بدأ ينطلق في يسر وفعالية بفضل جوهره المادي والروحي المزدوج . نعم ان العلم نفسه في تجاربه الانسانية الواعية بدأ يحدثنا الى البحث عن النسق المسوق بين عناصر كياننا في تلك الارواجية .

ان مستوى الحياة ومسارها في القرن العشرين يضعان مشكلا انسانيا يهم عالمنا الانثوي الاسوي بالدرجة الاولى . فهذه الالتزامية التي كاد تسلسل الاحداث في مخبرها الاستعماري يفرضها علينا يجب ان نخضعها لاختيارات منطقية اى انسانية تقدر فيها قيمة كل مبدأ تبعاً لمدى ما ينطوى عليه من مرونة وصلاحية لمسيرة روح العصر في هيكلها المزاج بين العقل والعلم والمادة والروح .

ان تكامل العنصرين والتوازن بين معطياتها التي كان البعض يرى تناقضها هو سر الحل الفاصل والدواء الناجع لكثير من المشاكل التي تتعمد بسبب انخيازها عن البساطة النظرية الكامنة في توازن مقومات الانسان فلا مادة بدون روح ولا روح بدون مادة ولا حل منطقي انساني بدونها معا .

وفكرة التكامل هذه قد ادرجها في مسلمات الفيزياء الحديثة العالمان (هيزنبرغ) W. Heisenberg و (نيبازوهر) Niels Bohr جاعلين منها احد المفاتيح الرئيسية التي تساعد الانسان على ادراك مغزى ما كان يراه متناقضا بل مستحيل الادراك ! فالرياضيات الماورائية métamathématique يتجه الى بلورتها علم الغد الذي سيكشف حقا مغايرا للحقل المعهود للعمليات الذهنية كما سيرفع النقاب عن الابعاد الجديدة المرتكزة على فكرة تيناها المؤتمر العالمي للفيزياء الذي انعقد في بيكين عام 1966 لدراسة مختلف اشكال الطاقة ما جل منها او دق مبرها عن وجود بنية سيكولوجية عليا .

نفى ظل هذه المعطيات العلمية امسى الانسان يؤمن بان الإنكارية الاستثنائية nihilisme لم تعد خاصية الفكر الحر وان التقليدية اللانطقية يجسب تضحيتها كاسلوب غير انساني من شأنه ان يشوه اختيارات الفكر ! ان قوة الانسان كاملة في قدرته على

الاختيار وفي الشعور بحريته في هذا الاختيار ولكن في نطاق توازنه الروحي المادي كائنسان !

ذلك ان الحكمة المثلّي تكمن في هذا الاختيار الذي يتجلى في بساطته من قبيل السهل الممتنع !

ان الخلق العالَمي ليس لقيمه المثلّي حدود مصطنعة ولا يمكن لاي كان ان يحد من مداه الانساني الذي هو سر مثاليته .

وهذه الوحدة الاصيلية بين الحضارات والتزاوج العريق بين الاختيارات الحضارية هو الذي الهم بعض زعماء الانسانية امثال محمد اقبال !

ان اي تطور مهبا يكن سيظل مشروطا بادىء ذي بدء بالفتح التلقائي للكائن البشري في وسط تلائم ومحيط لم تعكره ديباجوجية ولا تزمت مذهبي ! فالامة التي يتكافل مواطنوها تشكل الحقل الاصلح لاي اشعاع ! والامم التي تتفاعل اخويا في ظل (خلقية

انسانية عليا) هي التي سيقدّر لها ان تعيش وان تسود وان تفرض على العالم ذلك الاخاء الانساني الحق الذي يفتقده والذي سيشكل العامل الاتوي والاوحد لتمهيد الطريق من اجل استئصال جذور

الازيمات والاسلام الذي يطبع اتجاهنا قد عرف - كما يقول (لوي كاردي) Louis Gardet كيف ينفلت من

مغريات الكبرياء التي انتقادت لها الثقافة الغربية المعاصرة كما عرف كيف يتطور ضمن شعور عارم

بالحقيقة بعيد عن كل (سوبرماتية) Supra-humanité

يحفظ للإنسان توازنه في اطار ابعاده الحقيقية دون تحمس مغل ولا انحطاط مسف ! اذا كان عالما

بأجزائه المتناثرة لم يتعرف بعد على طريقة تفسح له مجال التفاهم فما ذلك الا لان كل جانب يجهل كل شيء من الجانب الآخر فهذا الفراغ الخطير هو الذي سباه (لوشاطوليبي) le châtelier

يقلق الفراغات malaise des lacunes والذي يقض مضاجع بعض اولئك الذين يسهرون على العلاقات الدولية مع العالم الثالث أو العالم العربي أو العالم

الاسلامي وهم لا يعترفون عهد هارون الرشيد الا من خلال (الف ليلة وليلة) تلك الظاهرة المرة هي سر كثير من المجازبات التي تعانيتها (الانسية المتوسطة)

التي سبق أن l'humanisme méditerranéen

وحدت بين الاسلام والمسيحية ودعمتها العقلانية الهيلينية كما فهمها سلفنا من قادة الفكر في البحر الابيض المتوسط امثال ابن رشد الذين كيفوا عقلية

الانسان في العالم المتحضر انطلاقا من توازنه ووحدة جوهره وازدواجية قوابيه : العقل والروح

هوامش البحث

- (1) في كتابه (انسية الاسلام - المقدمة)
- (2) نغلا من وولف (J. Wolf) في بحث له بعنوان (تراث حضارة تصادت الانسانية) (جريدة لوموند - مدد ثامن وتانسج يونيه 1969)
- (3) في كتابه (الاسلام والخلق الدولي م 1 من 22) وهو الكتاب الذي طبع باسم (الانسية الاسلامية) وكان قد احواله علينا وهو في ملازمه الاولى لبدء النظر قبل الطبع لشكرا له